الفصل الثانى

«الملك الذى جرد السيف فى سبيل دينه وعقيدته، يجمع فى طبيعته روح الحرب والسلم. لا يقاتل الناس ولا يعتدى عليهم وإنما يحارب الجهل ويقاتل الجمود ويكافح التأخر».

المستشرق المجرى
دكتور جرمانوس

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثانى

الشخصية العربية

من الصورة الذهنية؛ إلى الطابع القومى

يمثل مفهوم الشخصية أهمية خاصة بالنسبة لدراسة أدبيات الفكر العالمى عن الشخصية العربية والإسلامية؛ ذلك أن بعض هذه الكتابات يركز على تحديد السمات النفسية والاجتماعية التى تشكل الشخصية العربية المعاصرة؛ و مفهوم الشخصية «القومية بالرغم من أنه من المصطلحات السائدة فى قاموس العلوم الاجتماعية منذ فترة ليست بالقصيرة؛ إلا أنه يمكن القول إن نظريات العلاقات الدولية لم تضعه فى اعتبارها إلا نادرا؛ ولعل هذا ما يفسر جدّة مبحث التحليل الاجتماعى للعلاقات الدولية [١]».

ويذهب «كينيث تيرهون» إلى أن هناك أسبابا رئيسية تؤدى إلى ذلك فى مقدمتها [٢]: أن دراسة الشخصية القومية مفعمة بالمشكلات الاصطلاحية والمنهجية. وبالتالى يتساءل علماء اجتماعيون: هل يمكن أن يكون للأمم الحديثة المعقدة التركيب من وجهة النظر الحضارية شخصية قومية مفردة؟

لقد أصبح مفهوم الشخصية القومية من الموضوعات التى تشغل كثيرا من العلماء الاجتماعيين المنتمين إلى علوم اجتماعية مختلفة. وتعنى دراسة الشخصية القومية بوجه عام: «دراسة أكثر سمات الشخصية شيوعاً فى أى مجتمع للوصول إلى تقديم صورة مؤلفة من هذه السمات. وقد يكتفى الباحث بهذا الوصف أو يتبعه بمحاولة لتفسير نشوء هذه السمات أو بدراسة مقارنة بين الشخصية القومية فى عدد من المجتمعات [٣]».

ويظهرنا تاريخ البحث فى الشخصية القومية على أنه ينقسم إلى مرحلتين متمايزتين:

مرحلة التفكير المبنى على الأفكار النمطيةstereotypes؛ والمرحلة العلمية التى يرى كثير من الباحثين أنها بدأت مع الحرب العالمية الثانية؛ وتتميز باستخدام المناهج والأساليب الحديثة الشائعة فى العلوم الاجتماعية (١).

ويعتمد مفهوم الشخصية أو الطابع القومىNationl Character على فكرة أن النماذج الثقافية المختلفة فى مجتمع ما، تصنع أنماطاً للشخصية يمكن التمييز بينها؛ حيث يسود كل نمط منها فى ثقافة معينة أو فى مجتمع بالذات. أو أنه مجموعة الخصائص المميزة للشخصية، والخصائص الثقافية والبناءات النظاميةالتى قام بها علماء السياسة من بين المحاولات الرائدة التى بذلت لدراسة الفروق والاختلافات القومية دراسة علمية منظمة. وقد تطور المصطلح بعد ذلك من خلال أبحاث علماء الأنثروبولوجيا الثقافية [مثل روث بندكت فى كتابها الذى درست فيه الطابع القومى اليابانى] الذين حاولوا تطبيق الوسائل الفنية فى دراساتهم؛ بما فى ذلك بناء الشخصية الأساسية مع تعديلها وفقا للمكانة الاجتماعية (٢). وقد تأثر أغلب علماء الأنثروبولوجيا الثقافية فى تحليلاتهم بتأكيد علم النفس المستمر على أثر الطفولة المبكرة والتنشئة الاجتماعية فى تشكيل بناءات الشخصية (٣). ولذلك أصبح من المعروف أن وسائل تربية الطفل يمكن أن تكون عامة لأعضاء المجتمع، الأمر الذى يؤدى إلى وجود خصائص سلوكية ثابتة يسهل التنبؤ بها فى فترة الرشد.

ويتقبل عدد كبير من الباحثين فى العلوم الاجتماعية فكرة الاعتماد المتبادل بين الشخصية والنسق الاجتماعى والثقافى. ويذهبون إلى ضرورة تحديد المرحلة التاريخية التى يظهر فيها هذا الطابع بوضوح. لأنه على الرغم من أن هناك بعض الخصائص المميزة التى تبقى ثابتة نسبيا؛ إلا أنه من غير المنطقى أن نتصور أنه لا يخضع لتغيرات سريعة تحت وطأة ظروف معينة (٤). وتتضح مرحلة التفكير المبنى على الأفكار النمطية؛ حين نجد فى

(١) السيد يسن: نفس المرجع ص ٤٢.

(2) Ralph Linton, The cultural background of personality, 1945.

(٣) د. محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماعى القاهرة ص ٢٩٩.

(4) Inkeles and d. j. leirson, National character: the study of model personaity and socioc ultural sytems in t. lindz handbook of social psychology vol 11. 1954.

أوروبا تاريخا حافلا بالفروق القومية وكان نتاجها ـ فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين ـ الكتب التى تختلف بين الصواب والخطأ أو حسن النية وسوئها؛ حتى لنخرج من هذه الأفكار النمطيةStersotypes بنتيجة عامة كالميزان لآراء القوم. نفهم منه كيف يقولون قبل أن نعرض لما يقال ـ على حد تعبير العقاد ـ فى حين تظهرنا المرحلة العلمية فى دراسة الطابع القومى؛ على أن المخلصين من الأوروبيين فى نظرتهم للطابع العربى والإسلامى؛ فريقان هما: طلاب المعرفة، وطلاب العقيدة. وقد تجمعهما فئة واحدة يقال عنهم جميعا إنهم طلاب الحقيقة فى عالم العلم وفى عالم الضمير.

ذلك أن العلماء المتجردين للبحث العلمى عندهم «يتحررون جهدهم من الأهواء النفسية التى تحول بين الباحث وتقرير ما يراه كما رآه، ومنهم من يقرر مذهباً له فلا يفرق بين المشاهدات التى تؤيد مذهبه والمشاهدات التى تنقضه أو تشكك فيه أو تذره معلقا بين النقض والتأييد، فينتهى إلى ترجيح مذهبه ثم يتبع الترجيح بقوله: إن المذهب حتى الآن ثابت لولا ما يرد عليه من هذه المشاهدة أو تلك فى جملة المشاهدات..وليس بهؤلاء من خفاء فيما يكتبون لأنه ينم على مقاصد أصحابه بعد مراجعة يسيرة، ومنهم من عُرفوا بالأمانة العلمية فيما كتبوه عن سائر المطالب العلمية غير الإسلام.. أما طلاب العقيدة فهؤلاء هم زمرة من الباحثين داخلهم الشك فى عقائدهم التى ولدوا عليها وغلب عليهم الإيمان بأن الشرق هو مصدر الأديان، وأن الباحثين عن العقائد الروحية مرجعهم إليه فى الزمن الحديث كما كانوا يرجعون إليه فى الزمن القديم (١).

ومما لا ريب فيه؛ أن هناك مفكرين منصفين ـ لا غربيين فحسب، بل عالميين أيضا؛ درسوا الاسلام دراسة عميقة «فأحبه البعض وناصره، وآمن به البعض الآخر، وأعلن إسلامة وصدق فيه.. ولقد كانت الحرب الصليبية سببا من الأسباب الأولى التى جعلت الكثير من الأوروبيين يغيرون وجهة نظرهم فيما يتعلق بالشرق على العموم، وبالإسلام على الخصوص. لقد رأى الغربيون صفات الشهامة والنُّبل والفروسية يتحلّى بها أعداؤهم الشرقيون، ورأوا أن ديانتهم ليست على ما يصوره الاستعمار من الانحطاط؛

(١) عباس محمود العقاد: المرجع السابق ص ١٠

وبدأ الغربيون يدرسون فى شىء من التدبّر والروية، هذا الشرق الذى كان لا يثير فى نفوسهم إلاّ ما رسمه رجال مغرضون من صور خاطئة مغرضة.. ثم كانت الرحلات الكثيرة؛ والاتصال المستمر، والصلات المباشرة الوثيقة، من العوامل الفعالة فى إزالة كثير من الأوهام التى علقت بأذهان الغربيين عن الشرق وعن الإسلام..

ولم يقف الأمر عند حد إزالة الأوهام، ولكن تيار تفهم الاسلام جرى حتى لقد أخذنا نسمع مدح الاسلام من كبار كتاب أوروبا وفلاسفتها. وهؤلاء الكتاب المفكرون؛ المنصفون؛ منهم: «الكونت هنرى دى كاسترى» الذى درس الاسلام دراسة عميقة؛ وكتب عنه كتابا قيما؛ ترجمه المرحوم فتحى زغلول، ونشر بعنوان: «الاسلام سوانح وخواطر». و«كارليل» أحد كبار كتاب الانجليز؛ المتحرر من الرياء، والباحث عن البطولة؛ وقد أثار كتابه «الأبطال» إعجابا فى ميدان الفكر العالمى؛ وترجم إلى كل اللغات الحية. وفيه إنصاف لنبى الاسلام؛ ولدينه الحنيف. ولسنا بحاجة إلى الحديث عن «تولستوى» أديب روسيا وكاتبها الجهير؛ وهو الذى سمت نفسه؛ وفطرته؛ سموا إبداعيا وعمليا. وحين رأى الحملة الظالمة على الاسلام؛ وعلى رسوله الكريم؛ سجّل رأيه فى هذا الدين الذى أعجب به وقدره؛ وتحدث عن رسوله الذى نال إكباره؛ وكان جزاؤه على ذلك، أى على كلمة الحق التى يدين بها أن نال حرمان «البابا».. فكان ذلك كما يقول الشيخ محمد عبده مخاطبا الأديب الكبير:

«فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين».

أما «تولستوى» فقد قال ضمن ما قال: «لا ريب أن النبى ـ عليه السلام ـ قد هدى أمة بأكملها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام؛ وتكفّ عن سفك الدماء وتقديم الضحايا. لقد فتح طريق الرقى والتقدم؛ وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتى قوة وحكمة وعلما».

وكان لإسلام «اللورد هيدلى» ضجة كبيرة، لمركزه، ولما يعلمه فيه عارفوه، من نضج

فى التفكير، وترو فى الأمور؛ وحينما أراد الحج مر بالاسكندرية، فأقام له أهالى الثغر حفلة كبرى؛ تحدث فيها عن إسلامه؛ وأثر زيارته للشرق، ودراسته للقرآن الكريم فى هدايته إلى الاسلام ـ الذى هو بتعبيره ـ الدين العالمى حقا. يقول اللورد هيدلى: «لقد افترى كثيرون على الاسلام؛ وليس فى وسع الانسان فى الحقيقة إلا أن يعتقد أن مديجى وناسجى هذه الافتراءات، لم يتعلموا، حتى ولا أول مبادئ دينهم، وإلا لما استطاعوا أن ينشروا فى جميع أنحاء العالم، تقارير معروف لديهم أنها محض اختلاق. إن تعاليم القرآن الكريم، قد نفذت وموورست فى حياة محمد عليه السلام ـ الذى سواء فى أيام تحمله الألم والأضطهاد أو فى زمن انتصاره ونجاحه ـ أظهر أشرف الصفات الخلقية التى لا ينسنى لمخلوق آخر إظهارها [1]».

وتظهرنا دراسة أدبيات الصورة العربية والاسلامية فى العصر الحديث؛ على أن **الملك عبدالعزيز** الذى ولد بقصر الرياض فى ٢٠ ذى الحجة سنة ١٢٩٧هـ الموافق ٥ ديسمبر سنة ١٨٨٠م، يجسد فى عمله وقوله مقومات الشخصية الاسلامية، ذلك أنه تمثل المنهاج الإسلامى فى رفع مكانة الأمة العربية بين الأمم، لما تشرف به من رسالة الإسلام، ومن تراث العالم والمعرفة ما تستطيع أن تقف به بين الأمم مفاخرة معتزة.

واستطاع الملك عبدالعزيز أن يؤسس الدولة السعودية الحديثة، من خلال تمثله لعبقريتى الزمان والمكان، اللتين ألهمتاه أن الاسلام قد خلق الأمة العربية بتوحيد قبائلها وفض منازعاتها، وتوحيد جهادها، ورسم أهدافها لخير العرب وخير البشرية، فخرج العرب من الشقاء والتخلف والضياع إلى النعيم والسؤدد والازدهار وبعث فى نفوسهم العزة القومية، ومحق العزة القبلية الفارغة، فأصبحوا فى أمتهم وقوميتهم الجديدة موضع الاحترام والتقدير والإجلال».

ولذلك عنى الملك عبدالعزيز: [2].

١ـ بإصلاح حال الشعب البدوى: وتأليف جماعةالإخوان فى كل أنحاء نجد، والتى

(١) د. عبدالحليم محمود: أوروبا والسلام، ص ٧٠.

(٢) د. حسن سليمان محمود، سيد محمد إبراهيم، المرجع السابق ص ١١٣.

ترتب على مجهوداتها استقرار البدو فى الهجر وتعودهم العمل. كما كان للتعاليم الدينية التى نشرها بينهم علماء نجد أثر كبير فى تهذيب أخلاقهم وتصحيح عقائدهم.

٢ـ **توطيد دعائم الأمن الشامل فى البلاد:** ولقد اعتمد رحمه الله فى الوصول إلى هذه النتيجة السارة على التدبيرات الآتية:

(ا) تنفيذ حكم الاسلام بتطبيق قانون العقوبات والتعزير الإسلامى.

(ب) تضمين رؤساء القبائل لما يقع فى مناطقهم من حوادث، فهم المسئولون عنها أمام الملك.

(جـ) القضاء على مابين القبائل من خلافات بواسطة الصلح.

(د) توحيد الإمارات وضمها إلى مملكته وفى ذلك توحيد للمسئولية وضبط الأمور.

٣ـ **وإدخال النظم الصحيحة:** والانتفاع بالطب الحديث، ثم نظم الإدارة الطبية وجعل لها شعبا فى أنحاء المملكة فى نجد والإحساء وأسس مستوصفا فى الريا ض لمعالجة المرضى وإعطاء الأدوية مجانا، ثم أدخل التطعيم ضد الأمراض كما أخذ بنظام المستشفيات المتنقلة.

٤ـ **وتشجيع التعليم فى البلاد:** أنشأ كثيرا من المدارس الحديثة المنظمة فى معظم بلاد المملكة، وأرسل بعوثا علمية كثيرة إلى الخارج وخاصة مصر واستقدمت الحكومة السعودية المعلمين لهذه المدارس من مصر والبلاد العربية، ثم أخذ فى طبع الكثير من الكتب العلمية وخاصة كتب التفسير والحديث والفقه وجعل يوزعها على الناس بغير ثمن.

٥ ـ **والانتفاع بالمخترعات الحديثة:** فى بلاده فاستخدم السيارات وأدخل التليفون والراديو، وانتفع بكل هذه الوسائل كما انتفع بها سائر الأمم المتحضرة.

٦ـ وأسس لأول مرة **هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر**، وأصبحت الأمور الدينية والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله هى دستوره فى هذه البلاد.

٧ـ كما عنى بوضع أول **نظام للتابعية**.

٨ ـ وصنعت فى عهد جلالته **مظلات للحرم** لأول مرة.

٩ـ ضربت **الريالات العربية** فى عهده.

١٠ـ وضع **نواة للطيران وجعل** مركزه جدة وتأسست فى عهده أول مدرسة للطيران واللاسلكى.

١١ـ استحضر الهيئات الفنية للتنقيب عن **المعادن والبترول** بواسطة (توتشل) وبعثات أخرى لدراسة الربع الخالى بواسطة (فلبى).

١٢ـ اعتنى **بالزراعة** واشترى مكائن زراعية لتوزيعها على الفلاحين.

١٣ـ أعفى **الكتب العلمية** والمواد الغذائية الضرورية من الرسوم الجمركية.

١٤ـ تم فى عهده **إنشاء الجامعة العربية**، وقد وطد علاقات الصداقة بين دولها [١].

١٥ـ تم فى عهده مشروع مد أنابيب البترول من الخليج العربى حتى البحر المتوسط.

١٦ـ افتتح محطة الإذاعة السعودية.

١٧ـ تم فى عهده تأسيس مؤسسة النقد العربى السعودى.

١٨ـ ابتدأ فى مشروع توسعة الحرمين الذى تولاه من بعده جلالة الملك سعود. وجلالة الملك فيصل وجلالة الملك خالد وجلالة الملك فهد.

وقد استعانت حكومة الملك عبدالعزيز فى الإنفاق على هذه الإصلاحات بما أفاء الله على بلاده من موارد البترول العظيمة التى تفجرت على ساحل الخليج العربى.

وقد حصلت شركات أمريكية متعددة على امتيازات استخراجه ابتداء من سنة

---

(١) ولجلالته كلمة مأثورة بصدد الجامعةالعربية وتقويتها وهى:
«إنها لسان العرب ويجب على العرب أن يلتفوا حولها ويؤيدوها، وإذا كان لنا أن نطالب العرب بشىء مقابل ما وفقنا الله إلى اسدائه إليهم فهو أن ـ يعضدوا جامعة الدول العربية بكل قواهم وأن يلتفوا حولها بقلوبهم».
المرجع السابق، ص ١١٥.

١٩٣٣م، ثم انضمت جميعا فى شركة واحدة هى شركة البترول العربية الأمريكية (أرامكو).

ولقد كتب المستر كنيث وليمز Kenneth williams الكاتب الصحفى البريطانى، مقالاً عن الملك عبدالعزيز. لمناسبة الاحتفال بمرور خمسين عاماً على استرداد الرياض، هذه ترجمة القسم الأخير منه:

«نشرت كتاباً فى سنة ١٩٣٣ أى قبل اكتشاف الزيت فى المملكة العربية السعودية. أو بعبارة أخرى قبل أن تتركز موارد الثروة فى المملكة على أساس متين، أشرت فيه إلى أن الملك عبدالعزيز هو حدث فذ فى التاريخ. وإنى لا أدعى لنفسى أىّ فضل فى هذا التنبؤ، فقد كانت الدلائل كلها واضحة، وليس فيها شك أو التباس ولكن من دواعى السرور دائماً أن يشعر الإنسان بأنه لم يكن من صف المخطئين. **كأستاذنا فى أكسفورد الذى كان رغم مكانته فى العلم يتوقع تغيراً سريعاً فى مجرى الأمور.**

إنى أكتب اليوم، كرجل إنجليزى، ولا فخر فى ذلك، إلا أن كل أعمالى كانت، منذ الحرب العالمية الأولى، متعلقة بشؤون الشرق الأوسط. وقاصرة عليه. وإن كان هذا لا يؤهلنى، بطبيعة الحال، لأن أرى الأمور بالعين التى ينظر بها العرب إلى أنفسهم، ومع ذلك فإننى أؤكد. من دون أىّ تحفظ، أن نجاح الملك عبدالعزيز المستمر. ورزانته وحكمته وبعد نظره، هى أمور تقدر فى بريطانيا كل التقدير.

وقد سفّه جلالته آراء ناقديه، كبارهم وصغارهم، وشاهد العالم أعماله، فى أوقات الرخاء وفى أوقات الشدة، وعلى الأخص فى السنوات الصعبة أثناء الحرب العالمية الثانية، ورأى دأبه على الاحتفاظ بالتوازن والاستقرار. فلا سرّاء ولا ضرّاء، ولا عسر ولا يسر، صرف أفكار الملك عن الهدف العظيم الذى كان يرمى إليه. من بناء ملك منظم حسن الإدارة جدّى الحكم.

فالملك، كما لاحظ لأول وهلة كل من الرئيس **روزفلت والمستر تشرشل**، وكلاهما لا يستهان بحكمه، هو من أبرز رجال هذا العصر، حصن من حصون العالم الحديث.

وكما قلت، فإنى أكتب هذا كرجل إنجليزى. والإنجليزهم الذين خطب ابن سعود ودهم، أو بالأخرى انتزع منهم ذلك الودّ انتزاعاً فى بدء حكمه وأول عهده.

وإنى أذكر هنا أكثر من شخصيتين: **السير برسى كوكس** الذى قال لى مرة: إن **ابن سعود** لم يرتكب خطأ قط، وأىّ سياسى إنجليزى يمكن أن يقول عنه شخص إنجليزى مثل هذا القول؟ ثم الكابتن **شكسبير** الذى قتل لسوء الحظ سنة ١٩١٥ والذى بنى أول دعامة بين بريطانيا **والملك عبدالعزيز**، بعد السير برسى كوكس.

وإنه لمن دواعى الغبطة أن يذكر الإنسان كل ذلك.. خصوصاً إذا ما أثبتت الحوادث فيما بعد صحة حكم هذين الرجلين، بعد ازدياد الأصدقاء لابن سعود، والمعجبين به فى جميع أنحاء العالم.

ومنذ أن انتقل كوكس وشكسبير إلى ربهما، حدثت أمور كثيرة، فى البلاد العربية، دلت على أن العرب هم الذين يجدر بهم أن يكونوا أول المهتمين بإصلاح شوونهم وترقيةأحوالهم. وإنى لآمل أن يوجد بين الإنجليز الآن وفى المستقبل، من يقتفى أثر كوكس وشكسبير، وأن تنمو الصداقة البريطانية العربية السعودية وتحيا إلى الأبد».

ولقد نشرت مجلة «لايفLife» مقالاً بقلم نويل ف. بوشNole. Busch أتت مجلة الريدرز دايجستReader, s Digest فى عدد أكتوبر ١٩٤٣ على خلاصة وافية عنه، تحت عنوات «**ملك العرب العصامى**» هذه ترجمتها:

«كان الملك عبدالعزيز بن سعود فى طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج على عادته كل سنة، وفجأة انفجرت إحدى عجلات سيارته «البكار» فجلس على الرمال ريثما يتم إصلاحها ومر به راع يركب جملاً، وسأله عما إذا كان الملك قد مّر أمامه. فقال الملك: ولماذا تريده؟ قال سمعت أنه فى طريقه إلى مكة، فقلت لعلّه يمنحنى شيئا من النقود، أستطيع أنا كذلك أن أحج بها. ففتح الملك حقيبة الجنيهات الذهبية التى يحتفظ بها دائماً إلى جواره، وملأ يده بقطع منها وقدمها إلى الراعى. فذهل الأخير وحدق فى الجنيهات الذهبية، ثم فى الملك. وقال: شكرا لك ياعبدالعزيز.. لم أميز وجهك، ولكنى عرفتك من كرمك.

وليست هذه المقابلة بالشيء الجديد على الملك ولا على رعيته، فإن بادية الجزيرة العربية لما كانت خلواً من المطابع والسينما، فقد ظلّ وجه ابن سعود غير معروف عند عامة الشعب. ومع أن الأعرابى دعا الملك باسمه الأول، فإنه لم يتعد فى ذلك التقاليد. فابن سعود ليس فى حاجة إلى مظاهر التشريفات والرسميات التى تتبع فى بعض الممالك الدستورية، حيث تخفى السيطرة الحقيقية، لأنه، وهو العاهل الكبير، يجمع بين العمل، كرئيس وحاكم عام، ورئيس وزراء ووزير مالية، ورئيس دينى، وقائد عام.

وهو يسمح للجميع بمقابلته، فيستقبل كل يوم عدداً كبيراً من أتباعه فى قصره بالرياض، حيث يجلس، وعلى المنضدة بالقرب منه مسرّة وجرس كهربائى، وإلى يمينه مقاعد يجلس عليها خاصته، وأحياناً بعض كبار أنجاله. ويكون الجالس فى هذا المكان بعيداً عن مسمع الحاضرين إذا تحدث إلى الملك.

ويمشى ابن سعود، وهو الآن فى الثالثة والستين من عمره، فى تؤدة ودون استعجال وبعض ذلك يرجع إلى إصابات قديمة من السيوف والرصاص، ومع هذا فهو يبدو أصغر من سنّه.

وينهج منهاج الرسول محمد (ﷺ) الذى كان يخضع له أعظم جزء من الجزيرة العربية قبل ١٣٠٠ سنة مضت.

ويُعتبر ابن سعود أكبر شخصية فى البلاد العربية، فى هذا الوقت وحيازته للبلدتين المقدّستين ـ مكة والمدينة ـ جعلته الرجل الأول فى ٣٠مليون عربى فى الشرق الأدنى. وهو علاوة على ذلك، الرجل الأول فى ٢٢٠مليون نسمة منتشرين فى أنحاء العالم.

وبلاده ـ العربية السعودية ـ تُشرف على ممرّين من الممرات الثلاثة الموصلة إلى الشرق الأدنى ولهذا شأنه فى نظر الأمم المتحدة من حيث الاتصال بروسيا والهند والشرق الأدنى. أضف إليه أن جزيرة البحرين، فى الخليج العربى، ومنطقة الظهران، تعتبران نقطتين هامتين لملء الزيوت، لقوات الأمم المتحدة.

وقد لزم ابن سعود الحياد فى الحرب العالمية الثانية. وكذلك فى الأولى التى سبقت

وكان ذلك من حسن الحظ لبريطانيا، فلو أنه كان قبل الحرب قد وقع فى شبكة المحور الذى لم يترك وسيلة إلا استدرجة بها إليه، لكان من الصعب بل من المستحيل، طرد الإيطاليين من أثيوبيا والأريتريا. ولو تردد ابن سعود قليلاً، قبل عام واحد، لاختلفت نتائج ثورة المحور فى العراق، تلك الثورة التى كانت فيما بعد سبباً لدخول العراق الحرب إلى جانب الأمم المتحدة.

وقد ظهر إيمان ابن سعود بمعاونة الأمم المتحدة، كما ظهر بُعد نظره عندما كان رومل فى ضواحى الإسكندرية منذ عام مضى.

وبلاد العرب التى يحكمها ابن سعود لم تبلغ رفاهية المدن الأخرى، ولم تتأثر إلى الآن بالسعادة المادية، كالطائرة مثلاً (لاحظ تاريخ المقالة) ومنذ عهد غير بعيد نزلت إحدى الطائرات أمام مضخات الغاز، فى الصحراء لتتموّن بالوقود، وقال البدوى الذى ملأ حوضها: إن إحدى «السيارات» التى وقفت فى هذا اليوم سارت عالياً فى الهواء بدلاً من أن تدرج على الأرض.

والملك ابن سعود، عصامى كل العصامية. ففى عام ١٨٨٠ عندما ولد، كانت بلاد العرب تعتبر قطعة من الإمبراطوريةالعثمانية. ولكن تلك الصحراء العظيمة كانت فى الواقع منفصلة عن العالم أجمع. وكان أهل الجهاد فيها، مرابطين فى السر، للدفاع عنها وعن مدائنها المسوّرة، وسلاحهم السيوف والرماح (كذا) ولم تكن أوربا قد سمعت صرخات القتال ـ العربية ـ منذ عهدها بالحروب الصليبية. وفى بعض معاركهم استولى أحد جدود ابن سعود على معظم شبه الجزيرة. وهبطت ممتلكات آل سعود سنة ١٨٨٠ إلى لا شىء، على يد عشيرة اسمها آل رشيد.

وقبل أن يبلغ ابن سعود العاشرة، لاحظ أن أسرته قد سيقت إلى المنفى المقفر. وهنا نشأ ابن سعود. موقناً بأنه سيسترجع المساحة التى كانت فى أيدى أجداده، عاجلاً أو آجلاً. وقد قام بخطوته الأولى، وهو فى الحادية والعشرين من عمره، فقاد عشرة رجال أشداء ظل محتفظاً بهم مدة ١٥ عاماً، لمعاونته على آل رشيد.

وانتهى حكم آل رشيد، وكانوا قد انحازوا إلى صفوف الأتراك فى خلال الحرب العالمية الأولى، وأسر من بقى منهم، عام ١٩٢١ وكان حريصاً على الإفراط فى إكرام العدو المنهزم ـ كعادة العرب دائما ـ فنقلهم إلى عاصمته (الرياض) حيث يعيشون إلى يومنا هذا. ويذهب أمراء آل رشيد إلى المدرسة التى يذهب إليها أنجال ابن سعود. كما تتسابق خيل الأمراء من آل رشيد مع خيل الأمراء السعوديين.

ولما نودى به ملكاً على المملكة السعودية (أو قبل ذلك بقليل) دخل مكة بهيئة متواضعة، إذ كان مرتديًا ملابس الإحرام المؤلفة من زوج من المناشف.

وأول اختراع غربى أدخله ابن سعود إلى بلاده هو السيارات. وبينما نجد الشعب السعودى الذى لم يقم أحد بإحصائه حتى اليوم، وعدده يزيد على أربعة ملايين شخص، لا يملك أكثر من بضع مئات من السيارات، نجد الملك يملك ما يزيد على الألف. وعندما يقصد مكة، يسافر فى ركبه حوالى ٥٠٠ مركبة، منها عربات للنقل وعربات للخدم والحرس والطهاة وضاربى الخيام والميكانيكيين وبعض قطع الغيار، وقطيع من الأغنام والدواجن التى ستستهلك فى الطريق.

وتعتبر إضافة ما يقرب من ٢٥٠ ألف حاجّ مسلم فى مكة، كل عام، من أعمال المملكة الهامّة. كما أنها من مصادر الربح لها. وكان الحجاج فيما مضى يعانون الكثير من قطّاع الطرق، إلى درجة أنه لم يكن فى استطاعة الحاج، أن يجتاز المسافة ما بين جدة ومكة، بغير قوة مسلّحة من الحرس. وكان من الأمور المعتادة قبل الحكم السعودى، أن ينهب الفقير مال الغنى. غير أن الملك أعاد للحج هيبته.

ولما كان الغذاء الشعبى فى بلاد العرب هو الأرز، والشراب القهوة، وكلاهما يستورد من الخارج، فقد أصبحت زيادة المصادر الزراعية الأهلية من أهم المسائل فى الوقت الحاضر. وقد أرسل أحد أقسام الولايات المتحدة فى الشتاء الماضى، أفضل خبرائه للقيام بجولة مساحتها ١٠ آلاف ميل فى المملكة السعودية، للتنقيب. ويقوم وزير المالية فى هذه الأثناء بدرس شامل لمشروع إصلاحى غير بعيد عن الرياض حيث توجد ينابيع تيسّرىّ ما يقرب من ٢٥٠٠فدان خصبة تزرع شعيراً وخضاراً.

وساعدت وسائل الاتصال داخل المملكة على نشر الإصلاحات. فبواسطة الراديو والتلفون يعلم الملك عن طريق رجاله. بكل ما يدور داخل بلاده، إلى حدّ لا يكاد يصدقه العقل، فبينما يسرح البدو بقطعانهم في كل مكان، نجد بعض المسافرين في حاجة إلى موافقة الملك على دخول بلاده، ثم يحاط علماً بسيرهم خطوة خطوة.

ويقضي الملك معظم أوقاته في تصريف شؤون المملكة.

فهو، بعد تلاوة ما تيسر من القرآن، مدة ساعة قبل الفجر، ينهض للصلاة ثم يستحم ويتعطر بعطر الورد ـ المفضّل عنده وعند كبار العرب ـ ويتناول الشاي والقهوة، ويذهب بعد الإفطار إلى البلاط حيث يتقدم ووزراؤه واحداً بعد واحد، لإحاطته علماً بما حدث منذ اليوم السابق. وتحوي هذه المحادثات كل كبيرة وصغيرة، فمن ثورة في القبائل الشمالية، إلى سيارة غرزت في الرمال في طريقها إلى الرياض، إلى غير ذلك.

وفي البلاط الآن ثلاثة تراجمة يتلقون الأنباء الخارجية، ويترجمونها للملك في أوقات منظّمة. فهو بخبرته في الشؤون الحربية وحنكته، يعرف عن سير الحرب أكثر مما يعرف معظم موظفي واشنطن. وينتظر أن تنتهي الحرب القائمة ويتنبأ بأنها ستكون لمصلحة الحلفاء.

ويبدأ «اليوم» عند العرب من الشروق، بينما هو عندنا يبدأ من منتصف الليل.

وينتهي الملك من الأعمال الحكومية. ويستعد لتناول جرعة أخرى من الشاي والقهوة، حوالي الساعة الثالثة أي بعد أن يستيقظ بأربع ساعات ثم يتهيأ البلاط للاستقبال. ويقصد الضيوف الملك طلبًا لبعض المصالح، فيحضر كل منهم مذكرة يدوّن فيها مطالبه، ويرتبها رجاله حسب أهميتها، فتقدّم إلى الملك بعد الغداء، ويأمر بما يراه في كل واحدة منها. وعندما ينفض الاجتماع يتقدم زواره شاكرين له فضله أو طالبين المزيد. ويحرص الملك على ألا يسافر زائر من الرياض، قبل أن يحظى بهدية مناسبة، فتُقدم الساعات والعباءات والقطع الذهبية للشخصيات الأجنبية الرفيعة، وللشيوخ المقربين. أما الفقراء فيحظون بغذاء فخم في أي وقت يطلبونه.

وأعظم صفة خلابة فى الملك عبدالعزيز، اعتقاده الوثيق بالعدل الإلهى. وهو لهذا لم يُدهش كثيراً عندما أمدّ الله البلاد العربية بالزيوت، كما أمدها بالأمطار فيما مضى. ولن يدهشه كثيراً أن يمد الله العالم بالسلام وما يتبعه من رخاء».

يقول الزركلى [1]: «عرفنا من سيرة الملك عبدالعزيز، فى بدء الحرب العامة الأولى (١٩١٤م) أنه عندما علم بخبر نشوبها، أسرع إلى إنفاذ ثلاثة من رجاله. يحملون إلى أقرب أمراء العرب منه، وأبرزهم فى الجزيرة ذلك الحين: ابن صباح فى الكويت، وابن رشيد فى حائل، والشريف حسين فى مكة، يقترح الاجتماع بهم للمذاكرة فيما قد يؤدى إلى «اتفاق» ينقذ العرب من أهوال الحرب.

وقرأنا كتابه الذى بعث به قبل الحرب إلى والى البصرة التركى (العثمانى) يقترح فيه على الحكومة العثمانية «أن تدعو رؤساء العرب إلى مؤتمر يُعقد فى بلد لا سيادة لها فيه ولا نفوذ، ليقرروا أحد أمرين: إما أن تكون البلادالعربية كتلة سياسية واحدة، أو ولايات مرتبطاً بعضها ببعض فيما هو عام ومشترك من المصالح».

وبين أيدينا نص «معاهدة أخوّة عربية وتحالف» [2] عقدت بعد ذلك بين المملكة العربية السعودية والعراق فى محرم ١٣٥٥ (أبريل ١٩٣٦) وانضمت إليها المملكة اليمنية فى جمادى الآخرة ١٣٥٦ (أغسطس ١٩٣٧) وقد جاء فيها: «يجوز لأية دولة عربية أخرى مستقلة أن تطلب الانضام إلى هذه المعاهدة» وأن الفرقاء الثلاثة المتعاقدين «سيتشاورون فيما بينهم لتنفيذ الأغراض المختصة بالشؤون الإسلامية والقومية العربية» وأن الممثلين الدبلوماسيين والقنصليين لكل منهم «يجوز أن يقوموا بتمثيل مصالح الفريق الآخر عندما يرغب إلخ».

وسائر بنود المعاهدة قائمة على أساس التعاون. فما كتبه الملك عبدالعزيز إلى العثمانيين، قبل الحرب الأولى، وما كتبه إلى الأمراء المجاورين له، فى بدء نشوبها، وما عقده بعد ذلك مع ملك العراق ثم مع ملك اليمن؛ يدل على أنه كان فى طليعة الداعين والساعين إلى جمع كلمة العرب وتوحيد خططهم فيما يصون مصالحهم.

(١) الزركلى: السابق، ص ١١٩٩ وما بعدها.
(٢) انظر مجموعة المعاهدات ٢٤٢ و ٢٧٠.

لا يمكن أن يبدأ الحديث عن قيام فكرة الوحدة العربية، قبل التعرض لدعوتين أطلقهما وزير الخارجية البريطانية، مستر إيدن، فتح بهما الطريق أمام العرب، لتتفق حكوماتهم على «وحدة» يختارون نوعها: الأولى سنة ١٩٤١ والحرب العامة فى إبانها، وبريطانيا وحلفاؤها ينادون بالويل والثبور. ولم يأبه للدعوة أحد. والثانية، بعد أن مالت كفة أميركا وبريطانيا إلى الرجحان. وقد سئل إيدن فى مجلس النواب البريطانى، يوم ١٩ صفر ١٣٦٢ (٢٦ فبراير ١٩٤٣): هل تُتخذ الآن تدابير لزيادة التعاون السياسى والاقتصادى بين البلدان العربية فى الشرق الأوسط لإنشاء حلف عربى فى النهاية؟ فقال:

«إن الحكومة البريطانية، كما أوضحت من قبل، تنظر بعين العطف إلى كل حركة بين العرب، لتعزيز الوحدة الاقتصادية أو الثقافية أو السياسية بينهم. ولكن من الجلى أن الخطوة الأولى لتحقيق أى مشروع، يجب أن تأتى من جانب العرب أنفسهم. والذى أعرفه أنه لم يوضع حتى الآن مثل هذا المشروع الذى سينال استحساناً عاما».

وتناولت أقلام الكتّاب، فى القاهرة وبغداد والشام، تصريح إيدن هذا، بالتشريح والدعم. وأصدر أمير شرقى الأردن بيانين متناقضين، قال فى الأول ٢٦/ ٢/ ١٣٦٢هـ (٣/ ٣/ ١٩٤٣م): يجب أن يكون العرب هم البادئون بمشروع كهذا، ولا يمكن أن تتم الوحدة إلا بعد وضع الحرب أوزارها. وقال فى الثانى (بعد أسبوعين): يجب علينا إزاء تصريح المستر إيدن، أن نبادر إلى إقامة الدليل على استعدادنا للعمل. وأملى الوحيد أن أرى تحقيق وحدة العرب.

ورأت حكومة مصر أن باب الحديث وتشعب الآراء فى الصحف المصرية، قد اتسع، فأشارت إلى «الرقابة» بإغلاقة، فأوصد فجأة!

وأرسلت حكومة العراق، رئيسها السابق، جميلاً المدفعى، إلى سورية وفلسطين ولبنان وشرقى الأردن، ثم مصر. وفى هذه انضم إليه تحسين العسكرى (وزير داخلية العراق) فقابلا رئيس الوزارة المصرية، مصطفى النحاس، وأدلى جميل بتصريح قال فيه: لمست فى أحاديثى مع كثيرين من قادة الرأى العربى، لهفة إلى تحقيق فكرة الاتحاد؛ وبقى

التنفيذ الذى لابد أن يسبقه ما نحن جادّون فيه الآن من إجراء محادثات تمهيدية، مع قادة العرب وزعمائهم، فى مختلف الأقطار والدول.

وخرجت مصر (الرسمية) عن صمتها، بعد ٣٥يوماً من تصريح إيدن. فتُلى فى مجلس الشيوخ المصرى ٢٤ربيع الأول ١٣٦٢ (أول أبريل ١٩٤٣) تصريح بعث به مصطفى النحاس، رئيس الوزراء، جاء فيه: منذ أعلن المستر إيدن تصريحه، فكرت طويلاً. ورأيت أن الطريقة المثلى هى أن تتناول الحكومات العربية الرسمية هذا الموضوع. ويحسن بالحكومة المصرية أن تبدأ باستطلاع رأى الحكومات العربية، كل على حدتها. ثم تبذل جهودها للتوفيق والتقريب بين الآراء، وندعوهم بعد ذلك إلى اجتماع ودى فى مصر، لهذا الغرض؛ حتى يبدأ المسعى للوحدة العربية.

وأشار إلى اجتماعه بجميل المدفعى وتحسين العسكرى، وأنه دعا إلى مصر رئيس حكومة العراق (نورى السعيد) وسيدعو بعده مندوبين عن الحكومات العربية الأخرى، ليستقصى منهم ما عندهم فى الموضوع.

ولبّى نورى السعيد الدعوة، فتداول مع النحاس ما عندهما، وتحدث النحاس بأنه سيدعو الآخرين.

كل هذا، والملك عبدالعزيز فى الرياض، ينُقل إليه ما يحدث فى العواصم العربية، وما يقال.. ويزن الأمور بموازينه، يستعرض المبادىء والخواتيم: الإنجليز يقولون للعرب اتحدوا.. نورى السعيد، ينشر الدعوة فى الشام.. النحاس مريض.. أهل مصر يريدون عقد مؤتمر.. البريطانى (السفير) يقول لى: يمكن الأحسن أن يكون للعرب سياسة واحدة.. ما وراء هذاكله؟!..

يتحدث مع نفسه، ومع خاصته، ولا يأذن بكلمة تُروى عن لسانه فى هذا الشأن.

وأوجز ما يمكن أن أستعرض به ما دار بينه وبين الحكومة المصرية وغيرها، قبيل قيام الجامعة العربية، حديث «رسمى» أفضى به الشيخ يوسف ياسين إلى محمود فهمى النقراشى، أقتطفه من «مذكراتى» الخاصة هذا نصه:

يوم الأربعاء ٢٢ ذى القعدة ١٣٦٣ الموافق (٧ نوفمبر ١٩٤٤):

ذهبت والشيخ يوسف ياسين لمقابلة محمود فهمى النقراشى بوزارة الخارجية المصرية. وجلسنا معه نحو ساعة ونصف دار فيها الحديث الآتية خلاصته:

الشيخ يوسف: أول ما عرفناه فى موضوع الوحدة العربية أن النحاس باشا ألقى بياناً، قال فيه أنه اجتمع بنورى السعيد وتكلما عن شؤون البلاد العربية، وأن النحاس باشا سيدعو مندوبين من جميع الحكومات على انفراد لمعرفة آرائهم فى موضوع الوحدة. ثم جاءتنا دعوة من النحاس، فكتب له الملك عبدالعزيز بأنه لا يرغب فى الدخول بمباحثات لم يكن له اطلاع على الباعث عليها وألحّ النحاس باشا ثم أرسل عبدالحميد منير القائم بأعمال المفوضية المصرية بجدة، مع كمال حبيشة بك، إلى الرياض فى رسالة إلى جلالة الملك، ملتمساً إجابة رغبته فى إرسال مندوب عنه. فلم ير الملك أن يقال إن بين مصر وبلاد المملكة العربية اختلافاً، فأمرنى بالحضور. فحضرت واجتمعت بالنحاس باشا وأبنت له أن جلالة الملك لا يميل إلى العمل فى جوّ تشتم منه رائحة الدسائس.

«وسألنى النحاس باشا عن رأى جلالته فى بعض الأمور، فأبنتها له. ثم افترقنا على وفاق.

«وجاءتنى برقية من جلالة الملك يأمرنى بها أن أذهب أنا والشيخ حافظ وهبة لمقابلة النحاس باشا. وأن نظهر له رأى جلالته فى أنه لا يرى إمكان القيام بأى عمل مادامت الظروف الحاضرة قائمة. فتحدثنا مع النحاس باشا فى ذلك، فكان على وفاق معنا، وعدت إلى الحجاز.

«وبعد مدة قصيرة جاءتنا برقية من مفوضيتنا بدمشق تقول: إن الحكومة السورية تلقت دعوة من النحاس باشا لحضور اللجنة التحضيرية فى ٢٥ سبتمبر ١٩٤٤ فقلنا: يظهر أن النحاس باشا قرّ رأيه على العمل، ولم يشأ أن يشركنا فيه، لعلمه برأى جلالة الملك. وكنا قريرى الأعين بذلك.

«ولكن بعد عشرة أيام أخبرنى القائم بأعمال المفوضية المصرية بالنيابة، أنه تلى كتابًا من

النحاس باشا لتقديمه إلى جلالة الملك، وأنه يريد السفر به إلى الرياض. فاستأذنت له، وذهب ثم علمت أن الكتاب يشتمل على الدعوة نفسها التى وصلت إلى سورية، فأرسل جلالة الملك إليه كتاباً يجيب به على الدعوة، بأنه مازال على رأيه الأول وأنه إذا أصر النحاس باشا على فكرة عقد اللجنة، فنحن سنرفض الاشتراك فيها.

«ووصل هذا الكتاب إلى النحاس باشا، فحفظه عنده، ولم يردّ عليه بكلمة «واتفق بعد ذلك حضورى إلى مصر، لشؤون تتعلق بالحج، فقابلت النحاس باشا، وكان الأخ خير الدين حاضراً، وتحدثنا طويلاً فى أنه لم يؤن الأوان لاجتماع اللجنة، فقال: إنها ستكون تحضيرية ويمكننا ألاّ نبرم بها شيئاً جوهريا، ثم نعلق الموضوع على اجتماع المؤتمر إلى الفرصة المواتية التى توافقون بها على العمل معنا فيها. فناقشته فى هذا إلى أن اقتنع بوجهة نظرنا وطلب منا أن نساعده فى وضع صيغة يكتبها للذين وجّه إليهم الدعوة للحضور، يكون بها المخرج من الموقف. فاتفقنا على أن نفكر فى الصيغة المناسبة، ونحن وهو، ثم نتقابل بعد ثلاثة أيام، فنقرر ما يتفق عليه الرأى.

«وخرجنا معتقدين أن المشروع سيؤجل إلى أن يتيسر العمل فى جوّ حرّ. ثم عدنا بعد ثلاثة أيام فإذا هو يقرأ علينا نص كتاب وضعه ليرفعه إلى جلالة مولاى الملك، وفيه مناقشات وغمزات وإلحاح بالرجاء فى أن يوافق جلالته على الاشتراك فى اللجنة، وأن يرسل مندوبيه فى الموعد المعين.. وطلب منى أن أتسلم الكتاب لأرفعه إلى جلالة الملك. فلم يسعنى إلا السكوت والاكتفاء بأخذ الكتاب ورفعه إلى جلالة الملك بالبريد الجوّى.

«ثم سافرت إلى سورية ولبنان، واجتمعت بسعد الله بك (الجابرى) ورياض بك (الصلح) فرأيتهما يميلان إلى الاشتراك ويحرصان عليه، فعدت إلى الحجاز.

«وعند حلول الموعد أبرق النحاس باشا إلى جلالته بأن رؤساء الوفود اتفقوا على أن يرفعوا إليه برقية مشتركة يلتمسون بها اشتراكه. ويرجو الموافقة.

وأرسلت البرقية فعلاً. ولاحظ جلالته أن خصوم العرب قد يؤولون الامتناع إلى النهاية تأويلاً يفسّر بأن هنا خلافاً بيننا وبين البلاد العربية الأخرى، ولا سيما مصر، فوافق جلالته على الاشتراك وأمرنى بالحضور، أنا والأخ خير الدين. ودارت المحادثات على

أنها ستبقى سرية إلى أن ينعقد المؤتمر، وتعرض عليه، ولكن فى الجلسة الأخيرة فوجئنا بأن الرغبة متجهة إلى إعلان البروتوكول والبيان، فقلنا لهم إنكم إن أعلنتم هذا فجلالة الملك سيأبى الاشتراك فيه. وامتنعنا فعلاً عن إمضائه، فقالوا: ننفرد به، وتبقون أنتما ومندوب اليمن (وكانت خطته متفقة مع خطتنا) إلى أن تستأذنوا وتأتى الموافقة، فتضمّوا رأييكم إلى آرائنا. وأذيع البيان.

«ورفعنا كل هذا إلى جلالة الملك، فتلقيت أوامره وأنا فى المستشفى بعدم الرغبة فى الاشتراك، وأن أوضح لكم رأى جلالته مع بيان ما وقع، لتكونوا على علم به.

«وأضيف إلى هذا أنه إذا كان الباعث لبعض الحكومات العربية، أو أفراد منها، على السير فى هذا المشروع، هو الدعاية واستمالة الرأى العام. فسياسة جلالة الملك هى العمل، بدون كلام ولا دعاية ولا نشر أو إعلان. وهذه حوادث سورية ولبنان وفلسطين لقد عمل فيها جلالة الملك وكان لعمله أكبر الأثر، ولم يأذن فى نشر شىء. وليس فى بلاد المملكة العربية رأى غير مايراه جلالته ويأمر به، بعد التروى والتفكير. ثم إن بيننا وبين العراق معاهدة حلف عربى. لا تعد مقررات اللجنة التحضيرية شيئًا بجانبها، فنحن لا نريد أن نحدّ من مفعول تلك المعاهدة، وقد انضم اليمن إلى جزء منها. كما أن بيننا وبين جميع الحكومات العربية معاهدات، لايزال العمل جاريًا بها، وإن كان بعضها كمعاهدة الحلف مع العراق لم ينفذ لأسباب وقتية أو شخصية لسنا المسؤولين عنها. فهذه هى فى نظرنا أقوى من قرارات اللجنة التى ليس فى أكثرها شىء عملى. وقد وافق جلالته على العمليّ منها، وهو الاشتراك فى لجنة للدعاية يكون لها مكتب فى لندن ومكتب فى واشنطن. وسيكون الأخ خير الدين عضواً فيها، وستعقد اجتماعها الأول الآن فى هذا المكان. أما الأمور التى لا يمكن تنفيذها فيرى جلالته أن من إضاعة الوقت الاشتغال فيها، خذ مثلاً التموين فقد كنت اتفقت مع فؤاد باشا سراج الدين على أن تبيعنا الحكومة المصرية ١٠آلاف طن من الأرز والسكر والذرة لقاء اعتبار الجنيه المصرى بعشرة ريالات سعودية فى رسوم الحج، ووافق النحاس باشا على هذا الاتفاق، وأجلتا تبادل الكتابة بشأنه يومين. ثم أردت الاجتماع بفؤاد باشا، فإذا به يحيلنى على بدوى خليفة بك

وكيل وزارة الداخلية، وهذا يبلغنى اعتذار فواد باشا بعدم إمكان العمل بما اتفقنا عليه، ويقول: إن السلطة البريطانية منعتهم من بيعنا شيئاً. وخذ مثلاً آخر: كيف يمكن التعاون الجمركى وغيره وأكثر البلاد العربية لا تملك زمامها الآن. واذاً ليس فى الاستطاعة السير عمليا بما قررته اللجنة التحضيرية فى الوقت الحاضر؛ ولابد من انتظار فرصة بعد انتهاء الحرب تكون ملائمة للعمل. وإن جلالة الملك لم يوافق على الاشتراك فى المشاورات أولا ثم فى اللجنة التحضيرية ثانيا، إلا اتقاءً لما يمكن أن يقال من أنه على خلاف مع مصر، فجلالته أشد الناس حرصاً على حسن العلاقات وتمام الودّ معها.

وأجاب النقراشى «باشا» قائلاً:

«وأشكركم جدا على هذا الإيضاح الذى أفادنى كثيراً فى معرفة الموقف. فما كنت أعلم غير ما تحتوى عليه محاضر الجلسات. وإنما كنت أقرأ بين السطور أن جلالة الملك عبدالعزيز غير ميّال ما تحتوى عليه محاضر الجلسات. وإنما كنت أقرأ بين السطور أن جلالة الملك عبدالعزيز غير ميّال إلى السير فى المشروع. ولم أعرف السبب الحقيقى الجلى، قبل الآن، وإنى بدورى أذكر لكم أننا لا نرى أن نتقدم إلى أى عمل فى هذا، قبل الوثوق من أن جلالة الملك عبدالعزيز راض عنه، وموافق عليه. وقد جاءنى عبدالحميد منير، قبل أيام، ويسألنى عما أريد أن يحمله عنى إلى جلالة الملك فقلت له: إنك تعرف كل شىء ولا أريد أن تحمل غير كلمة موجزة تشتمل على كل ما فى نفسى ونفوس إخوانى، وهى أننا نرجو أن يعتبرنا جلالة الملك من أولاده.

وجاء دور سورية ولبنان، فى استشارات مصطفى النحاس، حول الوحدة العربية.

وقبل أن يصل رياض الصلح إلى القاهرة، ليعرب عن رأى لبنان، تلقيت من الملك عبد العزيز برقية (بالجفر) صادرة عن الرياض، هذا حلها:

القاهرة ـ نجدية

«يصل رياض الصلح لمصر للبحث فى موضوع المشاورات، وقد أخبر ابن زيد بأنه ينتظر معلومات منا، لتكون خطتهم معنا واحدة.

«عند وصول رياض، أخبره بأننا ممنونون منه ولا نعدّه إلاّ واحداً منا.

«والشيء الذى تم أخيراً مع النحاس، أنت ياخير الدين تعرفه. أخبره به.

«والذى يهمنا هو أمرسورية ولبنان، أن يكونا مستقلين، وبعيدين عن الأهواء والأغراض. وأى اتفاق يكون بين سورية ولبنان على أساس حكمهما الجمهورى، نحن ممنونين منه، ونساعد عليه ونؤيده.

«هذا الذى عندنا وإن جدّ شيء خبرونا به. لأنه من الصعب التقدم وراءهذه الخطوات قبل أن نعرف ما يمكن أن نعمله إزاء المصاعب الحاضرة.

«وهذا هو الذى تم بيننا وبين إخواننا أهل سورية».«عبدالعزيز»

ووضع بروتوكول الإسكندرية فى ٢٠شوال ١٣٦٣ (٧ أكتوبر ١٩٤٤) وتناولته حكومة الملك عبدالعزيز، كما فعلت الحكومات العربيةالأخري. فلما حمل المندوب السعودى (يوسف ياسين) موافقة الحكومة السعودية عليه، كان يحمل أيضاً رسالة خاصة من الملك إلى رئيس اللجنة التحضيرية (وكان رئيس وزراء مصر) مؤرخة فى ١٩ المحرم ١٣٦٤ (يناير ١٩٤٥) يبيّن فيها رأى الحكومة العربية السعودية، فى أن يقوم اجتماع كلمة العرب على أسس قوية. ومن هذه الأسس: أن «يعقد بين الدول العربية حلف يرمى إلى تكافلها وتعاونها، لسلامة كل منها، وسلامة مجموعتها، ويضمن حسن الجوار بينهم» وأن «تكون الحرب محرّمة بين الدول العربية» و«كل خلاف يُحلّ بالتوسط أو بالتحكيم» ـ وإذا امتنع أحد الطرفين عن قبول التحكيم أو عن الإذعان لما حكم به، فللدول العربية نصيحته» ـ «فإن بغى واعتدي، فلها بعد التشاور أن تقرر ما تراه لوقف الاعتداء» ـ واجتناباً للمشاكل بين الدول العربية يجب أن يكون مفهوماً من البداية أن نظام سورية ولبنان كجمهوريتين، سيستمرّ. كما هو مفهوم أن استقلالهما التام متفق عليه» ـ وتتعاون الدول العربية على تسهيل معاملاتها وتجارتها وتقوية اقتصادياتها، باعتبارها أمة واحدة ذات مصلحة مشتركة. على ألا يحرم هذا التعاون أحداً منها من حريته فى إدارته المالية

والاقتصادية لبلاده، بكامل سلطته» ـ أما توحيد الثقافة وتوحيد التشريع بين الدول العربية فالحكومة العربية السعودية تراه عملاً مشكوراً، غير أن ظروفها ووجود البلاد المقدسة فيها، يجعل لها وضعاً خاصا، فهى ستمتنع عن تنفيذ أىّ مبدأ فى التعليم أو التشريع يخالف قواعد الدين الإسلامى وأصوله».

وأعقب ذلك اجتماع «رضوي» وما دار فيه بين عاهلى السعوديةومصر، فأزمع الملك عبدالعزيز السير بالجامعة وتقويتها إلى أبعد مدي.

وفى الثامن من ربيع الثانى ١٣٦٤ (٢٢ مارس ١٩٤٥) احتفل فى قصر الزعفران(فى القاهرة) بتوقيع «ميثاق جامعة الدول العربية» وأمضاه بالنيابة عن الحكومة العربيةالسعودية ممثلاها يوسف ياسين وخير الدين الزركلي. وأصبح من سياسة الحكومة العربية السعودية بعد ذلك، إحكام صلتها بالجامعة، والسير فى سياستها الخارجية على المنهج الذى تختطه الجامعة، فيما هو من اختصاصها. ولم تبرم حكومة عبدالعزيز طوال حياته أمراً ذا بال، له علاقة بالدول العربية أو إحداها. قبل الرجوع إلى رأى جامعتها فيه ذلك لأن عبدالعزيز كان إذا مضى فى أمر، استمر ولم يتلفت» [١].

ويقول الدكتور محمد عبدالله ماضى [٢]!

«نستطيع أن نجعل الحديث عن تاريخ الدولة السعودية الحديثة، على فترات ثلاث: الأولي، ومن فتح الرياض سنة ١٩٠٢م. إلى سنة ١٩١٥م وهى السنة التى عقدت فيها معاهدة القطيف مع الحكومة الإنجليزية والثانية من ١٩١٥ إلى ١٩٢٦حيث نودى بعاهل الجزيرة ملكاً على الحجاز. والثالثة من ذلك الوقت إلى ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م).

وتعتبر الفترة الأولي، فترة تأسيس. فإن الملك عبدالعزيز بعد فتح الرياض شرع يستولى على المقاطعات النجدية تباعاً. والتقى فى صيف ١٩٠٤ فى منطقة القصيم، بأكبر

---

(١) الزركلي: السابق، ص ١٢٠٩.

(٢) الدكتور محمدعبد الله ماضي، أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين ـ بمصر ـ ألقى محاضرة فى دار جمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة، فى ١٣ صفر ١٣٦٥ (١٧ يناير ١٩٤٦) عنوانها «الدولة السعودية» ونشرها فى رسالة اقتطفت منها هذه الخلاصة.

جيش لخصومه مؤلف من جيش آل رشيد، ومن جيش نظامى تركي، فقضى على هذه الجيوش المتجمعة، فى الموقعة المعروفة بموقعة الشنانة. وبعد هذا لم يسع الحكومة التركية إلا أن تسعى لعقد صلح معه فعقد هذا الصلح واعترفت الحكومة التركية به، حاكمًا وزعيمًا لكل المقاطعات التى استولى عليها. وسحبت جيوشها من نجد فى سنة ١٩٠٦ وسنحت الفرصة لعبد العزيز، بعد ذلك، ليقضى على الثورات الداخلية التى أثارها فى نجد بعض المنافسين وذوى الأطماع، وأصبح فى نهاية ١٩٠٩ سيد الموقف فى كل نجد، جنوباً وشمالاً. ما عدا منطقة حائل فى الشمال الغربى من نجد التى كانت لاتزال فى ذلك الحين مقرا لآل رشيد.

لم يقنع الرجل البعيد النظر عبد العزيز آل سعود بهذا. ولم يشغله عن التفكير فى وسيلة يستطيع بها أن يقيم حكومة مركزية، مسيطرة مطاعة. ففكر فى القضاء على أسباب الخلاف بين البدو والحضر، من سكان نجد، وكان كل من الفريقين يبغض الآخر ويحتقره، ولايتورع عن الاعتداء عليه فى نفسه وماله. ثم نظر فوجد غالبية شعبه تتألف من البدو، وهؤلاء كانوا قد سيطرت عليهم أخلاق الجاهلية، فألفوا الفوضى وعدم القرار فى مكان. وهم بهذه الحال لا يمكن الاعتماد عليهم فى تأسيس ملك دائم، ولا يوثق بهم لا فى الشدة ولا فى الرخاء. فقد كانوا فى السلم عالة، وفى الحرب أتباعا لمن غلب متقلبين فى عقيدتهم ومعاشهم، وصداقتهم وعدائهم. فرأى أن يعالج نفوسهم بنشر تعاليم الدين بينهم، وأن يحبب إليهم الاستقرار، ويرغبهم فى العمل، ويساعدهم عليه وعلى التوطن، فعمد فى سنة ١٩١٠ إلى القيام بحملة إصلاحية قوامها العلماءالدينيون الذين انبثوا، بإرشادهم وتوجيهه، فى سائر أنحاء نجد بين البدو، وأخذوا ينشرون فيها تعاليم الدين الصحيحة، ويدعونهم إلى اعتناقها، ويطلبون إليها القيام بالواجب الدينى نحو الخالق، ونحو إخوانهم من بنى الإنسان، ويحببون إليها العمل والقرار فى مكان.

وبعد جهد صادق مشكور، أفلح الدعاة فى دعوتهم، وأخذ البدو يسكنون فى القرى التى بنيت لهم؛ وسميت بالهجر، لأنهم هاجروا باعتناقهم مبادئ الإسلام الصحيحة وسكناهم فيها، من الفوضى إلى النظام، ومن حال تشبه الجاهلية الأولي إلي حال الإسلام.

وبهذه الطريقة الناجحة، وبعبقرية ابن سعود الفذة، استطاع أن يغيّر من نفسية البدو. وألف الله بين قلوبهم بنعمته إخوانًا، ولهذا تسموا بالإخوان.

وعلى هذا النحو، أثمرت مباديء الإسلام ثمرتها فى الإصلاح، وأفلح الزعيم السعودى فى بناء دولته على أسس متينة، فصلحت حال الرعية، وأصبح بدو الصحراء النجدية، جيش ابن سعود الذى لا يُقهر، وعدته التى يعتمد عليها؛ وصارت الهجر معسكرات حربية منتشرة فى جميع أنحاء نجد. كما غدت هذه الهجر. مدارس يتعلمون فيها الدين، ويحيون فيها حياة الفضيلة والإيمان، ومستعمرات زراعية، ومناطق للعمل. وبهذا ـ أيضًا ـ غيّر ابن سعود من طبيعة الصحراء، بمثل ما غير من طبائع السكان.

وبعد أن نجح فى وضع الأساس السليم لبناء دولته الفتية تطلع إلى أن يضم إلى ملكه مقاطعة الاحساء الواقعة على الخليج، وكانت لاتزال تابعة للأتراك. فاستولى عليها سنة ١٩١٣ ويفتح الاحساء فكّ الحصار الذى كان يحيط بنجد، فوجد منفذاً إلى البحر، واتصل مباشرة بالسياسة الإنجليزية، وأصبح يشترك اشتراكاً فعليا فى توجيه السياسة فى دائرة الخليج.

ثم لم تلبث الحرب الكبرى الأولى أن قامت، فتحتم على ابن سعود أن يختار لنفسه وأن يحدد موقفه بعد أن طلب إليه الإنجليز الانضمام إلى صفوفهم، فى الحرب ضد الأتراك فرأى أن يقف موقف الحياد، وأن يحتفظ بقواه ليستخدمها عند سنوح الفرصة، لحسابه الخاص، فقبل الإنجليز منه ذلك؛ ولكنهم رأوا أن يرتبطوا معه بمعاهدة تنظم علاقتهم . فعقدوا معه معاهدة القطيف (ديسمبر ١٩١٥) واعترفوا به حاكما لنجد والأحساء وتوابعها. فأصبح ابن سعود صديقاً للإنجليز. ملزمًا برعاية مصالحهم، وبقيت هذه المعاهدة أساسًا للمعاملة بين الطرفين حتى تغيرت الظروف والأحوال واستبدلت بها معاهدة ١٩٢٧.

وبعد أن تقرر وضع نجد السياسي، ابتدأ مرحلة جديدة فى تاريخ حياته، كانت فى مبدئها مرحلة استجمام وانتظار، حتى انتهت الحرب فى سنة ١٩١٨ ثم تحولت إلى مرحلة تمكين النفوذ وبسط السلطان على المناطق المجاورة. لحماية الأملاك السعودية وتوسيع رقعتها. فاستولى على حائل شمالى نجد سنة ١٩٢١ وضمّ عسيراً الشرقية إلى

أملاكه سنة ١٩٢٢ كما ابتدأ فى ضم الأجزاء الأخرى من عسير الغربية الواقعة على البحر الأحمر، ودخل الحجاز فى سنتى ١٩٢٤ و ١٩٢٥.

واستأنف الملك عبدالعزيز مرحلة أخري، بعد أن أصبح سيد الجزيرة، وبعد أن شعر بقوة مركزه وخطورته، فى نظر المسلمين ونظر الدول جميعها. فشرع يقرر مركزه الدولي. وطلب إلى الحكومة الإنجليزية تسوية ما بينهما من علاقات على أساس التكافؤ والاستقلال، فألغيت معاهدة ١٩١٥ وعقدت معاهدة جدة فى مايو ١٩٢٧ واعترف الإنجليز فى المادة الأولى منها، اعترافاً صريحاً، بالاستقلال التام المطلق لمملكة عبدالعزيز آل سعود. وتتالت بعد ذلك اعترافات الدول. وعقدت معاهدات الصداقة بينه وبين الدول الأخري.

ثم عمد إلى تنظيم الحكم فى مملكته، وأخذ يسعى جهده فى الإصلاح. وهو ديموقراطى بطبعه وسليقته، يحب شعبه ويعطف عليه، ويعرف له قدره ويحفظ عليه كرامته. ولا عجب فى هذا فالشعب كل شيء «ومن يعتمد على الشعب لا يضعف أبدا» هذا هو دستور عاهل الجزيرة، كما صرح بذلك عند زيارته لدار البرلمان المصري، فى زيارته الأخيرة» (١).

وفاة الملك عبدالعزيز:

فى اليوم الثانى من شهر ربيع أول سنة (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م) وافاه الأجل المحتوم فى مدينة الطائف. ونقل جثمانه إلى الرياض حيث دفن بمقابر الأسرة الحاكمة السعودية، رحمه الله رحمة الأبرار وطيب ثراه، وبارك فى حياة خلفه جلالة الملك فهد العظيم، وجعل أيامه وعهده رخاء وبركة على الأمة العربية جمعاء (٢).

وفيما يلى بعض الأقوال المأثورة لجلالة الملك عبدالعزيز فى مناسبات مختلفة تؤكد ماترسخ فى الصورة الذهنية عن الشخصية الإسلامية ؛ فى الفكر الحديث:

١ـ قد فاتكم أن الراعى مسئول عن رعيته، وقد فاتكم أن صاحب السيادة لايستقيم أمره

(١) الزركلي: السابق ٢ ص ١٣٣٤.
(٢) المرجع نفسه، ص ١١٦.

إلا بالعدل والإحسان، وقد فاتكم أن العرب لاينامون على الضيم ولايبالون إذا خسروا كل مالديهم وسلمت كرامتهم.

٢ـ إنى مسافر إلى مكة لا للتسلط عليها بل لرفع المظالم والمغارم التى أرهقت كاهل عباد الله، إنى مسافر إلى حرم الله لبسط أحكام الشريعة وتأييدها فلن يكون بعد اليوم سلطان إلا للشرع. ثم استطرد قائلا «الذى أبغيه من هذه الديار أن يعمل بما فى كتاب الله وسنة نبيه فى الأمور الأصلية، أما فى الأمور الفرعية فاختلاف الأئمة فيها رحمة».

٣ـ ولايمنعك قضاء قضيته بالأمس، وراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك، أن تراجع الحق، فإن الحق قديم لايبطل، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل.

٤ـ إنكم لتنامون ملء عيونكم هانئين مطمئنين فى بيوتكم، وأما أنا فأبيت سهران قلقا لا يقر لى بال، أنظر وأتأمل فى سبيل مصالحكم وتأمين رفاهيتكم وسلامة بلادكم.

٥ـ أرجو الله أن يوفقنا للخير، وأفهم أننا لا نعز أحدا ولا نذل أحدا وإنما المعز والمذل هو الله سبحانه وتعالي، من التجأ إليه نجا،ومن اعتز بغيره هلك.

٦ـ يابنى كل من فى الوجود يجب المال ولكنى والله ثم والله إنى لا أحبه إلا بقدر ما أقضى به مصالح المسلمين. وليس لهذا الملك وعظمته عندى من قيمة، وإنما الذى أحبه وأريده هو رضا الله.

٧ـ إننا هاجمون على البلد (بريدة) فاحذروا أن تؤذوا من لايعترضكم أو تسيئوا إليهم بشيء حاربوا من حاربكم وسالموا من سالمكم. أما البيوت فلا تدخلوها، والحريم لايعتدى أحد عليهن ومن يعتدى عليهن فيعتدى عليه.

والملك عبدالعزيز فى هذه السياسة يسير على النهج الإسلامى فى توحيد الجبهة الداخلية فى بلاد العرب فى الجزيرة، ذلك أن الإسلام بعد أن وحد أطرافها «وقضى على الحواجز التى كانت تحجز بين قبائلها، وأزال العصبيات بينها، وبنى على أنقاض نظمها القديمة نظاما جديدا موحّداً، له دستوره، وتشريعه وأهدافه، أطلق تلك القومية الناشئة، وفتح أمامها الطريق لإبلاغ الرسالة للناس جميعا فى أقطار الأرض (١)».

---

(١) المرجع نفسة، ص ٣٦.

وفى سياسته لدولته تمثل للدستور الإسلامي، الذى أتاح للتاريخ العربى الإسلامى أن يكتب سطور المجد. فكان للأمة العربية ذلك السجل الحافل المليء بالمفاخر العربية والتجارب. وكان دور الإسلام فى هذا التاريخ بوجه عام، وفى تاريخ الملك عبدالعزيز - الذى يمثل المنهاج القويم للعصر الحديث - هو الروح والدافع، أو القوة الكامنة، وكان العرب الأداة المنفذة، أو الصورة المادية للحركة. لقد سن الإسلام الجهاد وأثاب عليه، فاستعذب الناس بذل النفس فى سبيل الغاية الجماعية، فى سبيل الرسالة التى يحملونها للبشر. وبهذا بدأت «حركة الغزوات الكبرى والفتوح العربية فى عهد الخلفاء الأربعة، وعهد بنى أمية، والعباسيين وامتدت رقعة العالم العربى من بلاد الهند وحدود الصين إلى المحيط الأطلسى ومن تركيا شمالا إلى السودان جنوبا (١).

«وقامت الدول والإمارات هنا وهناك فى مختلف العصور منذ القرن الأول إلى القرن الرابع عشر اتصلت فيها الأمة العربية بكثير من الدول والأجناس فاختلطت وتعاونت، واصطدمت وتعاركت وتصارعت صراعا شديدا، صراع حياة وموت، واستطاعت الأمة العربية خلال هذه الاتصالات والاصطدامات أن تنمو وتزدهر، واضطرت أحيانا أن تغلب على أمرها إذ تتألب عليها عناصر البغى والعدوان، ولكنها كانت تعود،وتبعث من جديد أشد عودا وأقوى عزيمة.»

يقول د. زغلول سلام «ولعل أخطر العناصر التى تألبت على الأمة العربية فى تاريخها الطويل: الشعوبية، والعنصرية، والمغول، والصليبيون، والعثمانيون.

أما الشعوبية والعنصرية فقد هاجمت الأمة العربية عقب حركة الفتوح وتكوين الأمة العربية الكبري. وقد عز على الشعوبيين والعنصريين أن يخلفهم العرب وينتزعوامنها ملك تلك البلاد الواسعة، وعرف الشعوبيون والعنصريون أن وراء الثورة العربية والمجد الذى أحرزوه ذلك الكتاب «القرآن الكريم» الذى رسم لهم طريق الحياة الكريمة ودفعهم دفعا إلى تحقيق غايات نبيلة وهمم واسعة فى العالم من حولهم، كذلك عرفوا أن

---

(١) اعتمدنا فى هذا الجزء على:
د. محمد زغلول سلام: المرجع نفسه، ص ٣٧ وما تلاها.

الشخصية العربية تتمتع بمجموعة من الخصائص. وأن هذه الأمة الفتية لم ينخر فى عظامها هرم الحضارة وداء الأمم فحاولوا جهد طاقتهم أن ينفذوا إلى العروبة فينفثوا سمومهم فى عقيدتها وقيمها حتى تهتز تلك العقيدة وتتخلخل، وتتحطم القيم ولايبقى بين أيدى العرب مايتعزون به، ويحافظون عليه. وهكذا تدخلت عناصر منهم فى صفوفهم فبعثوا الاضطراب ـ وأدخلوا فى عقائدهم البسيطة السمحة أمشاجا من العقائد القديمة استطاعوا أن يخلطوها بالعقيدة الإسلامية، وأن يموهوا على العرب ويزينوها لهم، فقامت المذاهب والشيع، والملل والنحل، وكانت تصطبغ الصبغتان السياسية والدينية معا، وهكذا شاهدنا طوال القرنين الثانى والثالث، بل ابتداء من النصف الثانى من القرن الأول صراعا قويا عنيفا بين المذاهب السياسية التى لونتها صبغات عقدية وافدة، بين الأموية والمروانية، والشيعة العلوية والخوارج، والمعتزلة، والصابئة والمرجئة.

ولم يقتصر عمل الشعوبية والعنصرية فى هدم الأمة العربية على التداخل فى الصراع السياسى لتفتيت وحدة الصف العربي، وتأليب أبناء العروبة بعضهم على بعض حتى يختلفوا فيفترقوا وتذهب ريحهم.

وجاء المغول من الشرق كالريح العاصفة، يزحفون فى جحافل عديدة حانقة غاضبة،بربرية تكتسح المدن العربية الإسلامية، وتحطم فى طريقها كل شيء من معالم الحضارة، حتى الكتب ودور العلم أحرقوها وداستها أقدام الخيل، وبعثرت الكتب التى تحمل خلاصة الثقافة العربية فى دجلة وعبر عليها المغيرون.

وقابل الزحف المغولى من الشرق زحف آخر حانق ساخط من الغرب، حيث تدافع الصليبيون من دول أوربا، دفع بهم إلى أرض العروبة أيضا الحسد والحقد والطمع والرغبة فى امتلاك ما فى أيدى العرب من ثمار حضارتهم الزاهرة فأقبلوا فى جحافل متتابعة كأرجال الجراد، أهاجها القحط والجدب فى بلادها إلى أرض العروبة الخضراء الزاهرة، فجاءوا يدمرون، ويرثون، ويقيمون فى قلب الأمة العربية فى الشام والأندلس الإمارات الصليبية، ويحاولون فى مصر ولكنهم يبوءون بالفشل ويرتدون خائبين.

ولم يخفت صوت العروبة مع ذلك فى النفوس، بل ظلت العروبة مشتعلة فى أشد الأوقات ظلمة، وكان الأدب دائما المتنفس، يذكر الناس ويجدد حيويتهم، ويسرد الأمجاد الطويلة، ويبث العزة.

ويحمل على التخاذل والهوان، ويحطم العناصر المخربة المتطفلة. وهذا المتنبى شاعر العروبة الكبير الذى عاش فى القرن الرابع يحمل على الأوضاع الشاذة فى الدولة العربية، ونذكر بعض ما قال فى هذا الموضوع، فمنه:

لقد تصبرت حتى لات مصطبر ... فالآن أقحم حتى لات مقتحم
ولأتركن وجوه الخيل ساهمة ... والحرب أقوم من ساق على قدم
والطعن يحرقها والزجر يقلقها ... حتى كأن بها ضربا من اللمم
قد كلمتها العوالى فهى كالحة ... كأنما الصلب معصوب على اللجم
بكل منصلت مازال منتظرى ... بك حتى أدلت له من دولة الخدم

وقال:

وإنما الناس بالملوك وما ... تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ... ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم ... ترعى بعيد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه ... وكان يبرى بظفره القلم

وهؤلاء أيضا جماعات من الشعراء فى العصر الذى غلب فيه والصليبيون، يذكرد. زغلول سلام منهم الأبيوردى الشاعر العربى الذى رثى بيت المقدس بعد سقوطه، واستنهض الهمم لاستخلاصه فقال:

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فهيا بنى الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرا بالمناسم

أري أمتي لايسرعون إلي العدا ... ر ماحهم والدين واهي الدعائم

ويجتنبون النار خوفا من الردى ... ولايحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب الأذى ... وتغضى على ذل بأيدى الأعاجم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى ... فلاعطست إلا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب تدعو ملحة ... إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية ... يل عليها الروم عض الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه ... رمينا إلى أعدائنا بالحرائم

«ذلك هو تاريخ الأمة العربية قبل بعثها الحديث، تاريخ مليء بالأحداث والأمجاد والبطولات، الأبطال الذين مازالوا يحيون فى قلوبنا ووجداننا ، ويتمثلون في خواطرنا ، وتتجسم لنا فى حياتهم وأعمالهم مثلنا العربية الإسلامية، وخصائص العروبة والإسلام، ومازال أولئك الأبطال يضربون للإنسانية المثل على صفاء الشخصية العربية ، وقوتها عبر الأزمان . كان لنا فى هذا التاريخ صلاح الدين الأيوبى الزعيم والقائد الإنسانى النبيل الذى وحد جهود الأمة العربية وقادها قيادة مظفرة للوقوف فى وجه الأطماع الصليبية وضرب أروع الأمثلة على سلوك العرب حيال أعدائهم ساعة النصر سلوكا إنسانيا»

وها هو ذا **الملك عبد العزيز آل سعود** يضرب فى القرن الرابع عشر أروع الأمثلة على التواصل الحضارى فى الشخصية العربية الإسلامية، ولعل هذا المعنى هو

الذى دفع الدكتور عبد الكريم جرمانوس المجرى ، الأستاذ بجامعة بودابست. والذى حجّ مرات بعد إسلامه . وعرف عبد العزيز إلى أن يتحدث عنه بما يشبه أن يكون شعرا[1] قال :

وفى كتاب «طرائف العرب»[2]:

من مميزات الرجل العظيم أنه لا يتكلف التواضع والنبل. ذلك لأنهما من سجاياه الفطرية فالملك عبد العزيز آل سعود من أعظم ملوك العرب المعاصرين الذين يمتازون بالصلاح والتقوى ، والتواضع والحلم، والجود والشهامة والوداعة والمروءة، والوفاء والإباء؛ وهذه مميزات السياسى الشريف الذى يغلب خصومه بقوة الإيمان وصدق العزيمة ومكارم الأخلاق.

ويجمع إلى جانب هذه الصفات النادرة، الحزم والشدة عند الحاجة. فهو يعرف أين يضع السيف، كما يعرف أين يضع الندي. وتلك صفات الموفق فى عمله، الخبير بشؤون مملكته ، الحكيم فى تصرفاته . ويرجع إلى هذه السياسة الفضل فى استتباب الأمن، فى جزيرة العرب التى مضت عليها حقبة من الزمن والأمن غير مستتب فيها . حتى أتاح الله لها هذا البطل الفاتح والمسلم الغيور ، فأبدلها من خوفها أمناً ، ومن جوعها شبعاً، ومن عطشها ريا.

هذا ، ولا يخفى أن أهل جزيرة العرب الذين اشتهروا بالجرأة فى كل شيء ، لا تصلح معهم إلا هذه السياسة التى تجمع بين اللين والشدة وبين الرغبة والرهبة .

وما من ريب فى أن الملك أن بسعود ، أستطاع أن يوطد الأمن والسلام ،ويقيم العدل والمساواة فى بلاده، بأمر واحد؛ هو العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، من غير التواء أو

---

(١) نشر في «صوت الحجاز» ١١ صفر ١٣٥٤هـ (١٩٣٥)م.

(٢) لأحمد محمد رضوان . طبع فى دار إحياء الكتب العربية، بمصر سنة ١٩٤٥م.

مواربة ، وبدون لين أو محاباة، عـملاً بقوله تعالى : (**ولا يجرمنكم شنان قوم على ألا تعدول ا اعدلوا هو أقرب للتقوى**) الآية .

وفى قوافل العروبة ومواكبها ، [1]: يعتبر الملك عبد العزيز ، عاهل المملكة العربية السعـودية، فخر هذه السلالة . خصوصاً وأنه أعرب عـن وعيه القومى ، وحاول فى أوائل الحرب العظمى الأولى ، أن يجمع أمراء عرب الجـزيرة، للتفاهم على قضيتهم المشتركة، ولـكنهم لم يستجـيبوا له ، فمضى معـتمداً على نفسه. وأدرك بـذلك استقلالا رافقه الحظ والثروة.

ويتحـدث المتحدثون عن الأمـن الذى انتشر فـى هذه المملكـة الواسعة بفضـل حزمه وهيبته . على أن الأمن ، وإن كان يعتبر الشـرط الأساسى الأول للعمران، فإن عناية الملك عبد العزيز لم تقتصر عليه وحده، بل تعـدته إلى سائر الشؤون العامة، على قدر ما كانت تسمح له خزينة المملكة وتقاليد البلاد.

وقد سجـل عام ١٩٨٣ نشاطاً محـسوساً فى المملـكة، من حيث العـمران والإصلاح، فكان اهتمامه بإنشاء خطوط النقل وإصلاح طرقات الحجاز.

وقد أنشأ مرفأ عسكريا فى جدة، وانصرفت جهوده إلى تعمير مكة، وتجديدها والعناية بالشؤون الصـحية فيها . واهتمت حكـومته بتجهيز المملـكة بالأجهزة التليفـونية، وحفر الآبار الأرتوازية ، فى الرياض وغـيرها، كما عنيت بمكافحة العـادات القديمة فى حفلات الزواج والمآتم. أضف إلى هذا أنـه وجه عناية خاصة، منذ تبـوأ عرش الحجاز ، إلى إعداد الجيش، وتجـهيزه بالمـعدات. وقد بلغـت قوات هذا الجيـش (سنة ١٩٣٨) عشـرين ألف جندى وخمسين ألف إحتياطى من الإخوان ».

---

(١) تأليف محمد جميل بيهم ، جزآن . طبع فى بيروت سنة ١٩٤٨، اقتطفت منه هذه الفقرات عن الجزء الثانى، الصفحة ١٢، و٢٠٨ - ٢١٢.

وفى كتاب « جزيرة العرب فى القرن العشرين»[1] « الملك عبد العزيز ، مشهور فى بلاد العرب بكرم الخلق وبسط اليد، لا يعرف أية قيمة للدرهم إلا أنه وسيلة لبناء المجد أو حسن الذكرى . فقلما يرد سائلا يطلب معونته، أو محتاجا يقصد بابه. وهو يشرف بنفسه على إعطاء القاصدين حسب منازلهم، لأنه يعرفهم حق المعرفة. وقلما يعتمد على أحد آخر فى ذلك . على أن هذه العطايا قد تكون لها مرام سياسية بعيدة يرمى إليها . وديوانه مفتوح للقادمين، يقابل زائريه مهما يصغر مقامهم، بوجه باش ويأخذ ألبابهم بابتسامته التى لا تكاد تفارقه . ومجلسه لا يخلو من « خطبة» صغيرة يراعى فيها نفسية السامعين .

وهو وفىّ لأصدقائه ، محافظ على ودهم؛ لا يحب أن يبدأ أحداً بالعداء ويميل إلى أسترضاء الناس واكتساب ودهم مهما يكلفه ذلك . ولكن إذا تيقن أن ليس هنالك من سبيل للصداقة فإنه يعادى ، ويعادى بشدة. وقلما يهاجم خصمه، فإذا هاجمه خصمه يبذل كل ما يمكنه بذله، للقضاء عليه »

وفى كتاب « مملكة فى الميزان»[2]: عبد العزيز منشىء هذه المملكة.. أرسى أساسها مكينا على الصخر . وأدى رسالته على صورة عجيبة وفق فيها بين ما أراده هو ، وما أراده العصر . عبد العزيزصنع تاريخ الجزيرة، وأسس المملكة السعودية . ودخل التاريخ الإنسانى ».

وفى كتاب «الزراعة الحديثة فى المملكة السعودية»«وحد الملك عبدالعزيز، عرب الجزيرة ، وجمع شتاتها وعشائرها ، توحيداً تاما، بعد تطهير جسمها من الأدران، وجعلها شعبا واحدا قابلا للنهوض والتقدم، والسير مع ركب الحضارة وجعل لها كيانا

---

(١) للشيخ حافظ وهبه، بتصرف .

(٢) بقلم محمد السوادى . طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٧٤ هـ (١٩٥٤)

سياسيا، وشيد دولة عربية حديثة اعترفت بها جميع دول الأرض وأممها بمعاهدات.

أقام الملك حكماً صالحاً فى الجزيرة ، على أسس الشريعة الغراء . ونشر فيها العدل والأمن، بعد أن كانت مسرحا للفوضى والسلب والنهب . ولم تعرف الجزيرة فى جميع أدوار تاريخها عدلا وأمنا مثل اليوم ، إذ أن كل ما فيها يعيش آمنا على نفسه، مطمئنا على ماله. وقد رأينا بأنفسنا ، أثناء تنقلاتنا داخل المملكة العربية السعودية، قوافل تترك حمولتها فى الصحارى ، من دون أية حراسة، وتعود إليها بعد أيام عديدة، فنجدها كما تركتها . وكنا نقطع ألفين من الكيلو مترات ، بين مكة المكرمة والإحساء ، والخليج ، لا نجد ما يخل بالأمن ، والكل يسير فى طريقه آمنا على ماله ونفسه وولده»

وفى كتاب «العربية السعودية»[1] « وعبد العزيز رجل حكيم، يأتى الأمور من أبوابها ، ويتقدم إليها خطوة خطوة، لتكون قدمه أرسخ وخطواته أثبت . وكان من أهون الأمور عليه أمر المناداة به ملكا على نجد ، من أول يوم تغلب فيه على الرياض . ولكنه لم يفعل ، لأنه كان قاصرا همه على استخلاص نجد من خصومه آل رشيد . وقصارى ما فعل هو السماح لرؤساء نجد وشيوخها بالمناداة به أميرا ، ثم إماما . وبعد هذه التاريخ بسنوات ، نودى به سلطانا على نجد وملحقاتها . وكان ذلك بعد استخلاص نجد بكاملها، وبعد أن غزا عسيراً وألحقها بنجد . أما بعد فتحك الحجاز سنة ١٩٢٦ فسمح بالمناداة به ملكا.

إنها خطوات حكيمة ، صادرة عن تصميم وتخطيط ، موضوعين فى كثير من التفكير والأناة والتدبير ».

---

(١) تأليف عبد الكريم موسى أبا الخيل المصلوخى - نسبة إلى المصاليخ من عنزة - طبع فى بغداد سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٣) م بعد أن نشر كتابا قبله سماه المملكة العربية السعودية» طبع فى بغداد سنة ١٣٧١ هـ (١٩٥١-م) ويكاد هذا يكون طبعة ثانية للأول ، مع زيادات ونواقص .

وفى «منابع الثروة الاقتصادية»(١) استعرض الكاتب بعض مظاهر النهضة الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية، فى عهد الملك عبدالعزيز ، فأشار إلى المستشفيات، وأنابيب المياه، وميناءى جدة والدمام. والسكة الحديدية، والمدن المنشأة فى المنطقة الشرقية، وحركة التعليم، والزراعة، ومنطقة الخرج والمواصلات والنفط، والمطارات، والكهرباء، وأمثال ذلك ثم قال:

«وإذا ما دققنا النظر جديا، نجد أن جميع الإنجازات الشاملة، إن هى إلا رغبات ابن سعود التى عمل بمفرده على إنجازها، محتملاً مرارة الصبر لمشاهدة نتائج أفكاره تؤدى ثمرها وأكلها اليانعين.

ولم يترك ابن سعود كبيرة ولا صغيرة، دون أن يناقشها ويعطيها حقها اللائق بها من اهتمامه وعزمه وقوة إرادته واحتماله الحديدى.

ليس أتاتورك كابن سعود، ولا هتلر، ولا موسولينى، ولا رضا شاه؛ فقد جاء هؤلاء جميعاً على أكتاف الملايين من البشر، إلى دست الحكم، بحكم مسؤولياتهم الخطيرة التى كانوا يحملون أعباءها.

ولكن ابن سعود، جاء إلى الحكم، بعزمه وبإرادة الله، يعاونه نفر مخلص، فنصرهم الله»

وفى كتاب «عبدالعزيز آل سعود»(٢): «الملك عبدالعزيز: من غريب أمره أنه كان أكثر أملاً وأظهر سروراً، عند اليأس والفشل، منه عند الانتصار والنجاح.

كان كبير النفس كبير الوجدان، متواضعا، نذر نفسه وأولاده لتوحيد العربية، وإعادة مجد الإسلام. بسيطاً فى مأكله ومشربه وملبسه، بعيداً عن ألوان الرفاهية، قليل النوم كثير

---

(١) رسالة عنوانها الكامل « منابع الثروة لاقتصادية في المملكة العربية السعودية وأثرها في تطوير الحياة الاجتماعية العامة » بقلم رسول عبدالوهاب العسكر. طبعت ببغداد ١٣٧١هـ (١٩٥٢م).

(٢) بقلم عمر أبو النصر. طبع في بيروت سنة ١٩٥٣.

التيقظ، عـظيم الانتباه. يعمـل بسرعة، ويصدر قراراته فيـما يستقر عليـه رأيه، بمثل ذلك، فإذا أراد كتـابة شيء أملى مـا يريده على أحـد أعوانه. وقد يملـى على اثنين، مـوضوعين مختلفين في وقت واحد.

كان كريماً إلى حد الإسـراف. قَصّ أحد رجاله أنه لا يعرف شكل الـعملة، ولا يفرّق بين قطعها وألوانهـا. وقد عتب عليه أحد رجاله يوماً، وسأله أن يفكـر في الاقتصاد قليلاً، فقال له: وهل أغنت عن عـبدالحميد ملايينه؟ إن أجدادى لم يحملوا فـى خزائنهم فلساً، وأنا أسير سيرتهم.

أما غضـبه فعظيم . ويـعرف رجاله فيـه ذلك فلا يجرؤ أحـد على التحدث إلـيه حين يكون ثـائراً غاضباً. ولكـنه غضب سريع الـزوال. وإذا كان مخطئـاً اعترف بخطئـه؛ حلو الحديث جميل المخالطة، راغباً فى المعرفة. طـالباً للعلم، مجلا لأهل الفضل والأدب وهو راغب ما يكون فى الاجتمـاع مع الغرباء، يسمع منهم أخبار بلدانهـم، وما يتصل بها من أخبار السياسة وأحداث الزمن».

وفى ملـحمة «عيد الريـاض» للشاعر بولـس سلامة: «تتجلـى إنسانية ابن سـعود، فى سخاء يـؤيد ما تنـاقلته الـرواة عن حاتم ومعـن وذكاء فطرى يـلمح فى دورة خـاطر، ما يستـعصى على أعلام الـعلماء فى أيام؛ وعـدل هو استواء الشمـس فى الظهيرة، إذ تـتخذ مكاناً نَصَفاً، وحلم يـنفد البحر قبل نفاده؛ ووفاء للذين ألفوه فـى المنزل الخشن، كأعلى ما يكـون الوفاء، واتضـاع وخفض جـناح، للضـعفاء والمساكين، ذوى المـتربة. ورقة كـرقة الشاعر الرهيف الحسّ، وتقوى يستلهم فيـها من آى القرآن المجيد: (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخـرة هم يوقنون) حَبَبت إلىّ ابن سعود فوق ما حـبّبه إلىّ حسامه، على أنه أشرف سيد عرفته جزيرة العرب منذ قرون».

يقول موريس جورنو، فى كتابه «تحقـيق حول ابن سعود»: «إذا كان ابن سعود قد نجح فى لَـم شعب الجـزيرة العـربية تحـت لوائه، وإذا كـان قد جعـل من بلـد مضطـرب آهل بالعصابات، البلد الأكثر أمناً فى العالـم، فمرد ذلك ليس القوة والسيف فحسب، بل لأنه سكـب فى أعماق الأمـة الناشئـة أقوى عوامل الـتراصّ والتـماسك، أى التـقيّد الشـديد

بأحكام القرآن.. فالجرائم التى ترتكب حاليا فى العربية السعودية، خلال عام كامل أقل مما يُرتكب فى باريس خلال يوم واحد».

ونحن نستقبل تحديات الألفية الثالثة، لا يسعنا إلا أن نؤكد أن الشخصية الإسلامية التى جسدت عبقريتى الزمان والمكان فى القرن الرابع عشر إنما هى شخصية الملك عبدالعزيز آل سعود الذى شهد عصره على يديه، كما قال الأستاذ خير الدين الزركلى:

«إمارات تتوحد وأمة تتكون ودولة تبنى وحضارة تشاد وتحول فى الأخلاق والعادات من فوضى إلى نظام ومن اسفال إلى اصعاد فى أقل من خمسين سنة استطاع رجل واحد أن ينشىء بين البحر الأحمر وخليج العرب ما عجزنا اثنا عشر قرنا عن إنشائه أو الإتيان بمثله.

بين أيدينا وتحت أبصارنا سطور من التاريخ الحديث تتحدث عن آل سعود قبل مائتى عام فتعرفنا أنهم ناصروا الدعوة إلى التوحيد أيام عاد محمد بن عبدالوهاب إلى نجد، ونظر فإذا الناس من حوله لازاجر لهم من دين أو نظام: اتباع أهواء، فقال: إن لم يكن الوازع لهم من سلطانهم، فليس الوازع من إيمانهم. إنهم فى خصام. فليؤمنوا بدعوة السلام. كل أخ لكل».

وانتشرت الدعوة تؤيدها القوة. فتكاثر جمع «المتدينة» من «الإخوان» وكان لآل سعود من السلطان فى ذلك العهد ما كان. ولد عبدالعزيز فى الرياض عاصمة آبائه وأجداده، فلم يكد يعى حتى سمع السمار يتحدثون عن ملك ذهب، ودولة طغى عليها عدوان الجيران. وأبت على عبدالعزيز نفسه الوثابة إلا أن يثب. لقد خلق عبدالعزيز لغير ما خلق له غيره من أبناء جيله. إن عليه أن يعيد ملك آبائه وعليه أن يقيم الملك على دعائم شامخة.